

مفهوم السعادة

في الماضي البعيد قال بوذا: إن كل الآلام والأمراض التي تصيب الإنسان في الدنيا هي نتيجة أخطائه وشهوته وإهماله. وهذا يؤكد فالسعادة مستحيلة مع وجود الإهمال ودون فضيلة أخلاقية وحكمة عملية.

منذ البداية والإنسان يعمل من أجل حياة أفضل، يطلب الهدوء والراحة والأمان والاستقرار، اختلفت المذاهب والآراء في تحديد السبل المؤدية إلى السعادة، لأن النظرة إلى السعادة متغيرة وفق الحقب التاريخية، ومن الصعب تحديدها بمعايير موحدة؛ فلهذا المفهوم صلة مباشرة بطرائق العيش وبميول الأفراد، هناك مواقف متعددة حول إمكانية تحقيق السعادة؛ منهم من يجدها في المال، ومنهم من يراها في الصحة، أو في ولادة طفل، أو في تحقيق مكانة اجتماعية وغيرها. ومنذ بداية الفكر التأملي إلى يومنا الحاضر لا يزال الانشغال بهذا الموضوع محط اهتمام مختلف العلماء والفلاسفة، فالسعادة لم تنزل من المسائل الأكثر أهمية، والأكثر تعقيداً، حتى مع تطور العلوم لم تتوحد النظرة إلى السعادة، ولم تحقق هذه العلوم الحديثة - كعلم النفس وعلم الاجتماع والبحوث التجريبية - تصورات أفضل مما حققته النظريات القديمة.

قد تكون المذاهب قد اختلفت نوعاً ما في تحديد السبل المؤدية إلى السعادة، لكن معظمها قد أجمعت على أن السكينة والبعد عن التوتر هما بداية الطريق المؤدي إلى بلوغ السعادة. ومن المؤكد أن كثيراً من الناس مخطئون في تصورهم لطبيعة السعادة، فلا يمكن إقناع الناس في مسائل تتجاوز ما هو مألوف لديهم أو ما يتناسب مع ميولهم. فالبعض لن يقتنع بأن السكينة هي طريق لبلوغ السعادة ما دام قد اعتاد على حياة الصخب. وإذا قلنا القناعة مسألة أساسية تخفف من التعب

والتوجس والقلق، فلن يعجب هذا القول من يسعى لاهتاً خلف الثروات. وإذا اعتبرنا الإيمان هو الحل الوحيد للوصول إلى السعادة المطلقة، سنواجه الرفض من أصحاب بعض المذاهب الوجودية.

الرواقية نظرت باهتمام إلى السكينة، لأنها تتطوي على الرؤية القائلة بأن أحداث الحياة العارضة لا ينبغي أن تُشغلنا، فهي أجزاء محتومة وضرورية من نظام الكون، في حين أن أصحاب النزعة الشكية قد اعتقدوا أن السكينة تنشأ عن موقف شكي إزاء مسائل متعلقة بالحياة. غير أن كل هذه المدارس قد رأت أنها استطاعت أن تتعرف على الشخص الذي يكون هادئ السريرة، وهذا الهدوء يمكن تسميته بالسكينة الروحية أو التحرر من الانزعاج، باعتبارها الحالة القصوى التي يمكن أن يبلغها شخص ما. ولكن ما اختلفت فيه تلك المدارس بشكل أساسي كان الكيفية أو الطريقة التي يمكن أن يبلغ بها شخص ما تلك الحالة على أفضل نحو.¹

إذا كان الإنسان لديه رغبات أو طموحات فهذا لا يعني أنه دائماً يمتلك الكيفية أو الإمكانية لتحقيق رغباته. وبما أن الإنسان كتلة من المشاعر والأحاسيس فقد تتحول هذه الأحاسيس لمصدر قلق أو خوف لديه، ولما كان الأفراد يختلفون من حيث الثقافة والمعرفة والبيئة والسن والمشاعر...، لا يمكن أن نوجد ما بين الميول والحاجات والدوافع عند الأفراد، بالتالي لا يمكن أن تكون المعرفة الأولية لديهم متجانسة، وإذا كانت المعرفة تتجسد بالألفاظ أو الصور التي يستقبلها الفرد ويفسرها حسب أحاسيسه، لا حسب أحاسيس مطلقها، فالحقيقة لا تتضح إلا بالجمع والتوفيق بين كل هذه الآراء وتنسيقها وتحليلها لتثبيتها بالأدلة، الأحاسيس ليست إلا أول مراحل المعرفة وليست المعرفة الحقيقية، لأن الحواس قد تخدعنا أحياناً حتى في الأمور الملموسة، فكيف إذا كانت مسائل ومفاهيم متغيرة ومتعلقة بمشاعر آنية ومتقلبة، كحالة السعادة.

¹ - السعادة - ص 170.

يقول ديمقريطس: "إن الأشياء هي بالنسبة لي على ما تبدو لي، وهي بالنسبة إليك على ما تبدو لك، وأنت إنسان وأنا إنسان". وهذا ما يراه أفلاطون نقلاً عن بروتاغوراس: "ألا تفهم ما يقوله بروتاغوراس: إن ما تتجلى الأشياء لي كل مرة هو فقط الشكل الذي أدركها به أنا، وما به تتجلى لك أنت هو ما به تدركها أنت، من جهة أخرى، في حين أن الإنسان هو ما تكونه أنت بقدر ما أكونه أنا كذلك، وهذا يعني أن الإنسان هو أنا أنت هو هم." وحسب كيركورد: "كل فرد هو بذاته عالم له قدس أقداسه الذي لا يمكن أن تتفد له يد أجنبية".

ولهذا لا يمكن بناء المفهوم المتعلق بالسعادة على أساس القياس، فهناك عوامل كثيرة تتحكم ببناء الشخصية الإنسانية، كالبعد العقلاني، والأخلاقي، والمعرفي. ووجود بعض الأعباء المادية أو الاجتماعية تحد أيضاً من حرية الأفراد، وتحدد مدى توافقتهم مع المحيط، فهذه العوامل هي التي تساهم في تحديد إمكانية سعادة كل فرد.

مشاعر الإنسان بشكل عام تبقى غير قابلة للقياس، أو لمعرفة مدى إمكانية صدقها، فالإنسان يستطيع أن يكتب مشاعره أو يتحكم بها، ومن الصعب التكهن بالمدى الذي يمكن أن تصل إليه هذه المشاعر.

والأمر لا يقتصر على تخيلات الإنسان أو قدرته على كبت مشاعره أو التحكم بها، فلا يمكن لأي شخص أن يرسم طريقه كما يشاء أو أن يتحكم بمشاعره كما يريد، فهناك حتمية ظواهر الطبيعة التي تتحكم بمصير الناس، وكذلك قضايا وظروف المجتمع المتغيرة؛ فهل سيضمن الإنسان سعادته أو استقراره ما دام وسط محيط غير مستقر؟ لأن أي خلل سيصيب التوازن في المجتمع سيؤثر حتماً على المجموعة ككل وبالتالي على الأفراد. وإذا قلنا أن مفهوم السعادة يعني الرضا عن الذات، وغياب الألم، والتمسك بالأخلاق والعدالة؛ فهل يمكن أن نضمن عدم تعرضنا لحوادث قد تسبب لنا الألم؟ وهل نضمن وجود هذه المسائل الأخلاقية والقيم لدى الجميع؟ ولكن كما قال بوذا: "أن كل الآلام والأمراض التي تصيب

الإنسان في الدنيا هي نتيجة أخطائه وشهواته وإهماله". فلا شك أن الإهمال يسبب كوارث، ولاشك أن الجهل يورث المرض، فالسعادة تسود المجتمع إذا عرف كل شخص واجباته وابتعد عن الشهوات المدمرة، وتجنب الأخطاء القاتلة.

رغم الاختلافات من حيث وجهات النظر في فهم ماهية السعادة، هناك حقيقة مشتركة واحدة، يتفق عليها كافة الناس، بأن غاية الحياة هي السعادة؛ ولكنهم يختلفون في فهم كيفية الوصول إلى السعادة، وهذا ما فسره أفلاطون: "إن السعادة هي تأمل الخير، الخير الأعظم والاتحاد به، ولكن ما هو الخير الأعظم؟" هنا الحكمة في معرفة الخير الأعظم.

أما (كانط) فقد عرّف السعادة على أنها مفهوم خارج عن نطاق العقلانية، ومفهوم السعادة لا يمكن الاستحواذ عليه من خلال العقل حسب رأي (كانط): "لسوء الحظ إن مفهوم السعادة مفهوم غير محدد، على نحو نجد معه أنه على الرغم من أن كل فرد يرغب في الحصول على السعادة، فإنه لا يمكنه أبداً أن يبين لنا على نحو محدد وبشكل متسق حقيقة ذلك الذي يرغب فيه حقاً ويريده. والسبب في ذلك هو أن كل العناصر التي تنتمي إلى ما يشكل مفهوم السعادة، يكون المطلوب من خلالها حالة كلية مطلقة، حالة قصوى من رفاهية العيش في حياتي الراهنة، وفي كل حالة مقبلة. وإذن من المستحيل بالنسبة إلى أكثر الناس بصيرةً ومقدرة - وإن كانوا متباهين - أن يشكلوا هنا مفهوماً محدداً كما يريده كل شخص بالفعل. فهل يريد الثروة؟ فكم قدر القلق والحسد والخداع الذي يمكن أن يصيبه؟ أم الأمر هو الحياة الطويلة؟ ومن الذي يضمن أن هذه الحياة لن تكون حياة طويلة بائسة؟ أم مناط الأمر هو الصحة على الأقل؟ فكم كان غالباً عجز البدن عن إبقاء المرء بمنأى عن الاقتراب من الصحة التامة قد أدى إلى سقوط المرء. وهكذا وباختصار فإن المرء لا يكون قادراً على أن يحدد بيقين تام ما الذي يمكن أن يجعله سعيداً حقاً. لأن فعل ذلك سوف يتطلب العلم المطلق بكل شيء".

وكما يجزم (صولون الأثيني) أيضاً وهو - أحد حكماء اليونان - بأنه ينبغي على المرء أن لا يُقيّم مقدار سعادته في وقت ما، وإذا كان من الضروري تقييم الحياة فذلك ينبغي أن يحدث عند نهاية الحياة. وكذلك ارتأى أرسطو الشيء نفسه؛ ولكن أرسطو يركز على أهمية التأمل، فالناس حسب رأيه لن يعرفوا مقدار السعادة إلا عن طريق التأمل. "إن السعادة تمتد بقدر ما يمتد التأمل، وإن السعادة تخص الناس بقدر ما يخصهم التأمل، ليس بطريقة عارضة ولكن بفضل التأمل، حيث أن هذا التأمل يكون جديراً بالإجلال والاحترام، ومن ثم فإن السعادة ستعد صورة ما من التأمل".

والروائي الشهير دوستوفسكي يدعونا أيضاً إلى حياة التأمل، فحياة كهذه يمكن أن تحقق السعادة. ويقول: "يشقى الإنسان لأنه لا يعرف أنه سعيد لا لأي سبب آخر، من يعرف أنه سعيد يصبح عظيماً في اللحظة ذاتها". وفي رواية المسكونون يقول: "حين تروي دموعك الأرض، حين تستدر دموعك بنفسك، تتلاشى كآبتك في الحال، وتجد لنفسك العزاء كله"². فهو في هذه اللحظات من الحزن يتبدى له الفرح ويعيش وجوداً إنسانياً بحضور الانسجام الأبدي، ويرى نفسه على احتكاك مع الطبيعة بما فيها من توازن ما بين الحزن والفرح.

² - دوستوفسكي ص 229.